



الاتحاد الوطني والانسجام الإسلامي

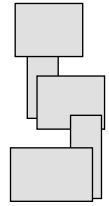
الشيخ جعفر السبحاني

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس وجعل الحج موسمًا للعبادة
وفرصة للقاء بين المسلمين من كل صقع وصوب ليتعارفوا ويطلعوا
على أحوال بعضهم بعضاً وهذا ما يشير إليه سبحانه بقوله:
﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ وأي منفعة بعد العبادة أكبر من أن يلتقي
الأخوة في الله في مكان واحد بعيداً عن جميع الاعتبارات الشخصية
والاجتماعية والحواجز القومية والاقليمية والعرقية تغمرهم مشاعر
الحبة والمودة وتجمعهم روح الأخوة الصادقة الصافية.

وأي مسألة أهم من أن يتعرف المسلمون على الأخطار والمشاكل
المحدقة بهم ويتدارسوا حلولها المناسبة ويعملوا معاً بيد واحدة وعزيمة
صارمة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ قمنا بإلقاء كلمة حول الاتحاد الوطني
والانسجام الإسلامي شرحنا فيها ما للاتحاد والوحدة من المنافع وما
للفرق والاختلاف من المضار وأتينا بدلائل على التلاحم الموجود بين
السنة والشيعة في الأزمنة السابقة.

الحديث عن الاتحاد والوحدة لا يحتاج إلى برهنة واستدلال، فكل إنسان - وإن
كان يتمتع بمعلومات محدودة حول القضايا الاجتماعية - يعرف أن تلاحم أمةٍ
ما وتضامنها سبب للكثير من الفوائد والخيرات، كما أنه يعلم أن الاختلاف
والانشطار لا ينتجان سوى الإخفاقات المتزايدة.



إن ضرورة وحدة الأمة - أي أمة - من القضايا التي قياساتها معها حسب الاصطلاح المنطقي، أي أنها ادعاءً يحمل دليله معه، ومن ثم لا يحتاج إلى برهان أو دليل.

المقطع الأول من مقطعي العنوان أعلاه عبارة عن «الاتحاد الوطني»، ومن الواضح أنّ الوحدة القومية والوطنية تختلف عن النزعة القومية، فالقومية مرفوضة في الإسلام، وقد ذمّ القرآن بشكل واضح هذه النزعة، فقد جاء فيه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (١).

وتحمل النزعة القومية معها معطيات مرفوضة وسلبية، إنها تعني أفضلية قوم على آخرين؛ للغتهم أو دهمهم أو أرضهم أو قوميتهم، إنهم يفتخرون بذلك، ويمارسون الإذلال والتحقير بحق الشعوب الأخرى.

إن هذا اللون من التفكير مذموم من جانبي العقل والشريعة الإسلامية المقدسة، فهو يمثل نوعاً من التفكير اليهودي الذي يرى بني إسرائيل أمةً مختارةً، ولهذا فهم ينسبون إلى الله أشياء لطلما ردّها القرآن، منها - على سبيل المثال - : ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ (٢)، و﴿قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ (٣) و﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ (٤).

إن هذه القومية نوع من عبادة العِرق، ومع الأسف فقد تفتت هذه النزعة في العالم في القرنين الأخيرين وأفضت إلى نزاعات واضطرابات وحروب عدّة، بينما نرى أن منطق الإسلام لا يعطي للقومية والعرقية أي قيمة ولا يعيرها أي اهتمام.

والنتيجة أن النزعة القومية مرفوضة قرآنياً وعقلياً؛ لما تحمله من مضمون سلبي.

أما الاتحاد القومي والوطني، فهو مفهوم إيجابي لا يحمل في طياته أي آثار سلبية، إنه يعني أن الأمة التي

تعيش على أرض واحدة وتشرب من مياه واحدة، تستفيد منها طوال سنين، فإن لهذه الأرض حقاً عليهم،

وهذا الحق يتمثل في أن يتحد البشر الساكنين على سطحها ويضعوا يدهم بيد بعضهم بعضاً، يرفعون

بذلك نقائص حياتهم، ويتغلبون على المشاكل والأزمات، دون أن يمارسوا تحقيراً للشعوب الأخرى

أو يقوموا بأذيتها والإضرار بها، إن الاتحاد القومي والوطني بهذا المعنى الأنف الذكر فكرياً فطرياً؛ فكل

إنسان تربطه بوطنه علاقة عاطفية. عندما هاجر النبي الأكرم ﷺ من مكة، وقعت هذه المدينة في ذاكرته

وهو في وسط الطريق عند «الجحفة»، فلم يتمكن من إخفاء مشاعره وحبّه لمسقط رأسه، فامتألت عيناه بالدموع، وهنا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ﴾ (٥).

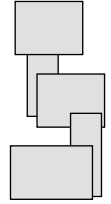
كذلك وعندما فتح النبي ﷺ مكة بعد عشر سنوات من البعد عنها ومفارقتها، وطهر بيت التوحيد من لوث عبادة الأصنام، نزل لدى دخوله إليها نقطة مرتفعة فيها تسمى

«أذاخر» وعندما وقعت عيناه على الكعبة كما ورد في كتب التاريخ:

اجتاحت قلبه عاصفة من الهم والحزن، وقال: «إني أحبك ولولا أنني هُجرت لما تركتك».

يتبين من هذا أن بين الاتحاد الوطني والقومي والنزعة القومية فاصلة كبيرة، بل لا يمكن - من الأساس -

الجمع والمقارنة بينهما.



مدح القرآن للاتحاد وذمه للاشتراط والتشظي

كلّما وصل القرآن الكريم إلى الحديث عن الوحدة والاتحاد أردفه بمدحهما، وكلّما مرّ بالحديث عن الاختلاف والانقسام ذمّهما، يقول في الاتحاد: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (٦)، ولتحقيق هذا الاتحاد اعتبر القرآن المؤمنين إخوة فيما بينهم، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٧)، وفي الحقيقة فإنّ أقرب علاقة بين شخصين من مستوى واحد هي علاقة الأخوة، لهذا اعتبر المؤمنون إخوة، فعلاقة الأبوة والبنوة رغم كونها أقوى من علاقة الأخوة إلا أنّ طرفي هذه العلاقة ليسا بمستوى واحد، لهذا لم يوظف القرآن هذه العلاقة، وإنما استعاض عنها بعلاقة الأخوة.

أما لدى حديثه عن الفرقة والانقسام، فنجده يقول: ﴿قُلْ هُوَ

الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٨)؛ فقد عرضت هذه الآية المباركة ثلاثة أنواع من العذاب هي:

١- العذاب من فوق، كحجارة السماء أو الصاعقة التي تحرق مدينة كاملة.

٢- العذاب من أسفل، كالزلزلة المدمرة والبراكين.

٣- عذاب الأمة الواحدة التي تشتت إلى فرق مختلفة تعزف كل واحدة منها على منوال خاصّ بها، وهذا العذاب أسوأ من العذابين السابقين، بشهادة أنه بعد ذكر العذاب الثالث المشؤوم يذكر نتيجته ألا وهي تعذيب كل واحدٍ بالآخر.

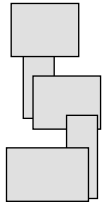
وأنهي هذا القسم من الموضوع

الانسجام والتضامن الإسلامي

تعني كلمة الانسجام النظم والانضباط، وهو أحد المحسنات البديعية في البلاغة، فذاك الكلام الذي تتسم مفرداته بالجمالية وتخلو من التعقيد يطلق عليه اسم الكلام المنسجم. والانسجام الإسلامي يختلف عن وحدة المذاهب، وهو معادل - بمعنى من المعاني - للتقريب بين المذاهب، فوحدة المذاهب أمر غير ممكن التحقيق؛ ذلك أن الاختلافات التي مضى عليها أربعة عشر قرناً لا يمكن بأسبوع واحد أو شهر واحد أو سنوات عدة أن تزول أو تتلاشى، إلا أنه في الوقت عينه الذي تختلف فيه المذاهب يمكنها استخراج مجموعة من المشتركات الكثيرة فيما بينها لتتعلق منها في تعاون ضروري وتحصل من خلال ذلك على نتائج مبهرة، دون أن تمتنع في الوقت عينه عن تداول القضايا

بتحليل آية الاعتصام، حيث أن القرآن دعا إلى الوحدة والتمسك بالجل الواحد؛ فبدلاً من أن يقول: تمسكوا بالقرآن والإسلام، نراه يقول: تمسكوا بحبل الله، وكأن الهدف من ذكر (الحبل) الإشارة إلى أن الإنسان عندما يكون في قعر البئر فإن سبيل نجاته الوحيد هو أن يُلقى إليه حبل إلى داخل البئر ليمسك به ويصعد عليه، وإلا فإن موته في الداخل يغدو محتملاً، إن الأمة المضطربة التي يعزف كل واحدٍ فيها على منواله تشبه ذلك الذي سقط في البئر، ذلك أن موتها قطعي ونهايتها محتومة، فما أروع أن نعمل على أن تتوحد هذه الإيقاعات وتمسك خير إمساك بحبل الوحدة كي نحظى بالنجاة وننعم بالخلاص.

كانت هذه كلمات موجزة وإجمالية حول المقطع الأول من العنوان (الاتحاد الوطني)، ولننتقل الآن إلى شرح المقطع الثاني.



فأجبت: البداء كلمة تستخدم في
موردين:
١- البداء في مقام الثبوت.
٢- البداء في مقام الإثبات.

أما الذي في مقام الثبوت فيعني
أن كل إنسان يتمكن من تغيير
مصيره بأعماله الصالحة والطلحة،
وأن لا يظن بأنه ليس له سوى
مصير واحد، وإنما يرى أن له مصائر
عدّة، كي يعرف كيف يحوّل مصيره
عبر العمل، فمثلاً هناك عمر محدود
للإنسان في لوح الحو والإثبات، إلا
أن هذا المصير غير حتمي، إذ بإمكانه
تغييره عبر ممارسة صلة الأرحام،
فيتمكن من زيادة عمره أو الإنقاص
منه بالأعمال التي يقوم بها. وقد
يُكتب في مصير الإنسان بلاء أو
مرض إلا أنه لا يكون حتمياً، إذ يمكنه
أن يرفع هذا البلاء عنه بالصدقة.
وهناك عدة آيات وروايات تدلّ
على هذا النوع من البداء ذي

الخلافة في الحافل العلمية - لا في
مقبرة البقيع^(٩) - عبر حوارات
مثمرة لتحلّ العالق منها أو تجعل
الأفكار متقاربة.

الانسجام الإسلامي في ظلال المذاكرة والحوار

من المناسب أن أنقل هنا قصّةً
تتصل بموضوعنا، فقبل سبعة
وعشرين عاماً انطلق مجلس الخبراء
من هذه النقطة بالذات، والتقى
نيّف وسبعون شخصاً هنا، وكنت أنا
آنذاك في لجنة (الأحوال الشخصية)،
التي تشكّل الفصل الأول من
الدستور.

وقد كان في لجتنا المولوي
عبدالعزيز؛ فسألني: هل تقولون
- أنتم الشيعة - بالبداء؟ فأجبت:
نعم، قال: والبداء بمعنى الظهور
بعد الخفاء، لا يمكن نسبته إلى الله فلا
يقال: بدا لله؟

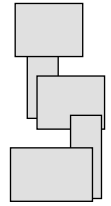
البُعد الثبوتي، كما أن الآية الكريمة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١٠) ناظرة إلى هذا الأمر. وقد أورد جلال الدين السيوطي في تفسير «الدر المنثور» عدداً من الروايات بهذا المضمون.

إنَّ أكبر أثر للاعتقاد بالبداء متصل بعالم الثبوت، في مقابل اليهود الذين يعتقدون بعدم إمكان تغيير المصير البشري حتى بالنسبة لله تعالى، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾^(١١).

أما البداء في مقام الإثبات، فيحمل معنى آخر، وهو أن يُخبر نبيّ أو ولي من أولياء الله بخبرٍ ما، غير أنه لا يتحقق، وهنا لا بد أن نعرف أن هذا المخبر الإلهي لم يكن كاذباً في خبره، فقد كان مطلعاً على المقتضيات التي تدفع إلى تحقق الظاهرة أو الحدث، دون أن يكون مطلعاً على المانع اللابث في البين، وفي هذا المورد

يقال: بدا لله، تماماً كما في قصة قوم يونس، حيث أخبر بنزول العذاب، وبدت آثاره، وعبر ذلك ثبت قول هذا النبي، غير أن قوم يونس سلكوا سبيل التوبة بإرشاد من أحد العباد الزاهدين، وتمكنوا بذلك من إبعاد شبح العذاب الإلهي عنهم، وهذا ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَتَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ مَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١٢).

وللبداء في مقام الإثبات موارد معدودة، أحدها ما جرى لقوم يونس، أما أنه لماذا يقولون: بدا لله، فيما كان سبحانه وتعالى مطلعاً على تمام زوايا الحدث وأطرافه، أي أنه كان يعلم بتكذيب قوم يونس وبلعنة يونس عليهم وتهديد مظاهر العذاب لحياتهم وعمرانهم.. كما أنه سبحانه يعلم بأنهم يسلكون سبيل التوبة،



وتنزل الرحمة الإلهية عليهم، وفي هذه الحالة لماذا يقال: بدا لله؟ فيما يفترض أن نقول: أبدى الله ما أخفاه؟ فالجواب: هو أن البشر يتحدثون عما يرونه، فحيث كان هذا الواقع بنظرهم ظهوراً بعد الخفاء، فإن الاستنتاج الأولي لهم يصوغونه في جملة: بدا لله، وإلا لابد من القول - انطلاقاً من العقائد والأصول المسلمة - : بدا من الله.

إن هذا النوع من الاستعمالات كثير في القرآن الكريم، ونذكر هنا مورداً واحداً؛ حيث يتحدث القرآن عن المنافقين، فيقول: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١٣)؛ فمن المسلم أن عمل المشركين كان حيلة، فيما لا يكون عمل الله حيلة والعياذ بالله، وإنما يبطل سبحانه حيلهم، لكن حيث جرى التعبير عن عملهم بالمكر، بين فعل الله باستخدام الكلمة نفسها، كي يكون

هناك نوع من التناغم والتناسق في الحوار والمجادلة، وهذا ما يسمّى في الاصطلاح البلاغي بالمشاكلة التي تعطي الكلام جماله ورونقه.

ومن هذا المنطلق، عندما تحدث رسول الله ﷺ عن الأشخاص الثلاثة من بني إسرائيل الذين كانوا يتعذبون: واحد بالقرع وآخر بالعمى، وثالث بالبرص، وأن الله رفع عن كل واحد منهم بلاءه؛ فأعطى الأول شعراً جميلاً، والثاني عيوناً ناظرة مبصرة، والثالث جلدًا نابضاً نضراً، وعندما لم يشكر بعضهم هذه النعمة الإلهية أخذها الله منه؛ لأنه لم يكن ليقوم بواجباته ومسؤولياته مقابل هذه النعم الربانية، في هذه القصة نجد رسول الله ﷺ يعبر: «بدا لله في الأقرع والأبرص...» (١٤)، والعلّة في هذا التعبير هو ما قلناه قبل قليل.

...عندما سمع عبدالعزيز هذا البيان كّله قال: آتني بكتاب من قدماء

الإمامية يفسّر البداء بهذا الشكل الذي ذكرته الآن، وفي تلك الأيام، أتيت به بكتاب «أوائل المقالات» مع «تصحيح الاعتقاد» للشيخ المفيد، وذلك عاريةً من مكتبة مسجد جهل ستون (الأربعون عموداً)، في طهران، وقدمته له، وبعد ستة أيام أرجع الكتاب لي، وقال: إنّ البداء بهذا المعنى الذي يقوله (المفيد) متفق عليه بين علماء أهل السنة كافة.

استنتج من هذا كلّه، أن الحوارات الحميمة الصادقة التي تحكمها الصداقة يمكنها أن تقلّص المسافات وترفع الكثير من الستر التي تحجب رؤية الحقيقة.

تعاون علماء الفريقين في العصور السابقة

إن هذا البُعد والقطيعة الموجودين اليوم بين علماء الشيعة والسنة كانا



أقلّ حجماً في الماضي، وقد ضاعفت العناصر الخارجة عن الأجواء العلمية منها، ووسعت من الانشطار والتشظي، ونمّر هنا على تاريخ هذا التعاون بين علماء الفريقين:

عصر الصادقين عليهم السلام المنير والانسجام الإسلامي

يعدّ عصر الإمامين: الباقر والصادق عليهما السلام عصر الصراع والتصادم بين الدولتين: الأموية والعباسية، فحينما كان رجال السياسة مشغولين ببعضهم، كان الجو العلمي مفتوحاً أمام التعاون المعرفي، وقد استفاد منهما عليهما السلام عدد كبير من أعظم شخصيات فقهاء ذلك العصر، نذكر بعضاً منها:

١- أبوحنيفة (١٥٠هـ) إمام الحنفية، فقد كان ملازماً للإمام الصادق عليه السلام لعامين كاملين في المدينة المنورة، وهو بنفسه يتحدث عن تأثير هذين

العامين عليه، حيث يقول: «لولا الستتان لهلك النعمان» (١٥).

٢- مالك بن أنس (١٧٩هـ) فقيه المالكية، حيث يقول عن الإمام الصادق عليه السلام: لقد رأيت جعفر بن محمد، وكانت الابتسامة على شفثيه، كان عندما يذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وآله يتغير لونه ويصفر، ولم ينقل حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا وكان على وضوء، لقد كنت لمدة أكرر الذهاب عنده والتردد عليه، فلم أره إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً وإما صائماً وإما يقرأ القرآن، وكان من العباد الزهاد الذين يخشون الله تعالى (١٦).

٣- سفيان الثوري (١٦١هـ) صاحب مذهب فقهي يُنسب إليه، وقد استمرّ مذهبه قائماً حتى القرن الرابع الهجري، وقد نقل الكثير من الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام.

٤- سفيان بن عيينة (١٩٨هـ)

أحد رؤساء المذاهب التي انقرضت أنصارها، وكان ينقل روايات عن الإمام الصادق عليه السلام.

كانت هذه نماذج لما أردنا ذكره، وكتب الرجال والتراجم حافلة بالمزيد (١٧).

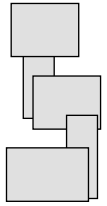
ولم تكن هذه العلاقة لترتبط الفقهاء المعاصرين للإمام الصادق والباقر عليهما السلام وتجعلهم يحملون رواياته وأحاديثه، وإنما امتدت لتشمل الفقهاء الكبار في علاقتهم بتلامذة هذين الإمامين، حيث كانت بين الطرفين علاقات علمية وفكرية، فابن أبي ليلى قصد محمد بن مسلم كي يطلع من خلاله على فتاوى وآراء الإمام الصادق عليه السلام، ليتمكن عبر ذلك من حلّ مشكلاته الفقهية (١٨).

وفي سفره من المدينة إلى مرو، كان على مسير نيسابور آلاف المحدثين ينتظرون الإمام الثامن عليه السلام وفي أيديهم القلم والكاغذ، وهناك

بالذات سمعوا حديث السلسلة الذهبية حيث ألقاه الإمام الرضا عليه السلام عليهم.

ويشير الإمام الفخر الرازي في تفسيره لسورة الكوثر إلى نسل السيدة الزهراء عليها السلام، ويقول: في أيّ أسرة نجد علماء كبار مثل الباقر والصادق والكاظم والرضا؟! وفي المجلد الأول من تفسيره، ولدى بحثه عن جزئية البسملة من كل سورة ولزوم الجهر بها، ينقل الفخر الرازي رأي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويقول: «كل من اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى»، ودليله على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم أدر الحق معه حيثما دار» (١٩).

أكتفي هنا بهذا المقدار للتدليل على التعاون المعرفي الذي كان قائماً بين المذاهب في عصر الأئمة الأربعة، وأسعى - لاحقاً - لبيان هذا التعاون بين علماء الفريقين في عصر الغيبة،



منذ عام ٢٦٠هـ فما بعد.

بسندته إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله» (٢٠).

١- الكليني في طرابلس

محمد بن يعقوب الكليني، أحد المحدثين الشيعة البارزين، ولد حوالي عام ٢٥٥هـ وتوفي عام ٣٢٩هـ، وقد كتب «الكافي» في حوالي عشرين سنة، وأخذ عنه القميون الحديث، ثم عزم السفر إلى بغداد، ليعرض هناك كتابه على المحدثين.

لقد كان الجو في بعلبك منفتحاً إلى حدّ أن محدّثي الفريقين كانوا يتبادلون الحديث فيما بينهم، وقد أخذوا الحديث من هذا الشيخ الجليل، دون أن يروا أن تشييعه مانع من أخذ الحديث عنه.

في تلك الأيام، كانت بغداد والكوفة مركز التشيع، ومع ذلك لم يكتف الكليني بما فعل، بل واصل سيره نحو دمشق وبعلبك، وهناك في بعلبك بالذات نقل الحديث عن أستاذين هما: أبو الحسن محمد بن علي السمرقندي، ومحمد بن أحمد الخفاف النيسابوري.

٢- الشيخ الصدوق في بلاد ما وراء النهر

يّم الشيخ محمد بن علي بن بابويه (٣٠٦-٣٨١هـ) المعروف بالشيخ الصدوق، شطره - لأخذ الحديث - ناحية المشرق الإسلامي، وأقام لسنوات عدة في بلخ وبخارى، ونقل الحديث عن ٢٦٠ شيخاً من شيوخ الحديث، وقد كان بعضهم من محدّثي أهل السنّة، مثل أبي نصر أحمد بن الحسين الضبيّ المرواني (٢١)،

يكتب ابن عساكر في تاريخه أن مشايخه ضبطوا الحديث عن الكليني، ويعمد من ثم إلى نقل حديث عنه

كما نقل عددٌ من محدّثي أهل السنّة عنه الأحاديث، وقد كان بعض مشايخ الخطيب البغدادي، مثل محمد بن طلحة النّعالي من تلامذة الشيخ الصدوق، ليس هذا الرجل فحسب، بل هناك آخرون من أهل السنّة أخذوا الحديث عنه (٢٢).

٣- الشيخ المفيد في بغداد

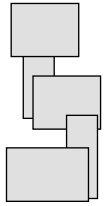
محمد بن محمد بن النعمان العكبري المعروف بالشيخ المفيد (٣٣٦-٤١٣هـ) أحد العلماء المشهورين في بغداد، لقد كان مشعلاً يضيئ على المحيطين به، وقد استفادت الفرق عامتها منه، يقول ابن الجوزي عن درسه: «كان له مجلس بداره بدرج رباح يحضره كثير من العلماء من سائر الطوائف» (٢٣)؛ وما يرشد إلى عمق العلاقة التي كانت تربط الفرق كافة - من الشيعة والسنّة - به وحبهم له، ما يقوله عنه كل من الشيخين:

الطوسي والنجاشي، وهما من تلامذته، يقول النجاشي: «وكان يوم وفاته مشهوراً، وصلى عليه الشريف المرتضى بميدان الإسنان، وضاق على الناس مع كبره» (٢٤). ويصف الشيخ الطوسي يوم وفاته فيقول: «كان يوم وفاته يوماً لم يُرَ أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه، وكثرة البكاء من المخالف والمؤالف» (٢٥).

لقد كان الشيخ المفيد وكافة علماء بغداد من الفرق المختلفة يكرّمون العلم رغم اختلافهم فيما بينهم. وكانت تربطهم علاقات وطيدة، فذرف شخص سنيّ الدموع على موت عالم شيعي كاشف عن عمق العلاقة والارتباط الروحيين.

٤- الشريف المرتضى زعيم أهل العراق

يعدّ الشريف المرتضى، علي بن الحسين (٣٥٥-٤٣٦هـ) من أركان



العباسي (القائم بأمر الله) كرسي
الكلام الإسلامي (٢٨).

٦- ابن إدريس الحلبي والتعاون مع الفقيه الشافعي

يخبرنا محمد بن منصور الحلبي،
المعروف بابن إدريس (٥٤٣-٥٩٨هـ)
- وهو عالم بارز مرموق صاحب رأي
ومدرسة في الفقه - في كتابه القيم
(السرائر) عن علاقته وتعاونه مع
أحد فقهاء الشافعية: «كتب إليّ
بعضُ فقهاء الشافعية، وكان بيني
وبينه مؤانسة ومكاتبة: هل يقفُ
الطلاق الثلاثُ عندكم؟ وما القول
في ذلك عند فقهاء أهل البيت؟
فأجبته...».

لقد عاش ابن إدريس في مدينة
الحلّة فيما كان مسكن هذا الفقيه
الشافعي هو بغداد أو شمال العراق،
إلا أن بُعد المسافة لم يشكل مانعاً
من استفادة هذين الفقيهين من

العلم في العراق، وقد اعترف
الجميع له بالإمامة في الكلام والفقه
والتفسير والأدب، فابن بسام
الأندلسي يمتدحه في أواخر كتاب
(الذخيرة) فيقول: «كان هذا الشريفُ
إمام أئمة العراق بين الاختلاف
والاتفاق، إليه فزع علماءها، وعنه
أخذ عظمائها» (٢٦).

٥- الشيخ الطوسي وكرسي التدريس

وما أنتجت يراع الأستاذين
البارزين: المفيد والمرتضى، الشيخ
محمد بن الحسن المعروف بالشيخ
الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ)، إننا نجد
ينقل في أسانيده عن عالين سنيين
أخذ عنهما الرواية، وهما: أبوعلي بن
شاذان، وأبو منصور السكري (٢٧).

ويصف الذهبي بيته بمعقل
السبّاقين إلى العلم، ويكفينا للإشارة
إلى عظمتة العلمية أن أعطاه الخليفة

بعضهما، ليرجّحاً المشتركات على نقاط الخلاف.

٧- الشيخ منتجب الدين الرازي ومديح الرافعي القزويني

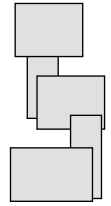
منتجب الدين أحد علماء القرن السادس، وقد كتب تكملةً على فهرست الشيخ الطوسي، وفي الحقيقة فقد أكمل فهرست الشيخ الطوسي شخصان في وقتٍ واحد: منتجب الدين في الري، وابن شهر آشوب في بغداد أو دمشق.

يعدّ الرافعي القزويني - صاحب كتاب (التدوين) - من المحدّثين الرفيعين لأهل السنّة، ومن مؤرّخي القرن السادس، وقد لازم الشيخ منتجب الدين وظل في خدمته فترة طويلة، وأخذ عنه الحديث والعلم، ومن المناسب هنا أن نطالع مكانة هذا العالم الشيعي على لسان تلميذه، إنه يعرف أستاذه في كتاب

(التدوين) كما يلي: «شيخ ريان من علم الحديث سماعاً وضبطاً، يكتب ما يجد ويسمع ممن يجد، ويقلّ من يدانيه في هذه الأعصار في كثرة الجمع والسماع والشيوخ الذين سمع منهم وأجاز لهم، وله كتاب الأربعين، وقد قرأته عليه بالريّ سنة ٥٨٤هـ» (٢٩).

٨- فخر المحققين ومديح صاحب القاموس

فخر المحققين محمد بن الحسن بن يوسف، أحد فقهاء القرن الثامن الكبار، إنه ابن الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلّي، وقد كان هذا الولد عزيزاً ومختراً جداً عند والده، لهذا كتب الوالدُ جملةً من مؤلفاته بناءً على طلبٍ منه ورغبة، وفي آخر كتاب (قواعد الأحكام) سجّل وصيته لولده وهي وصية تحوز على قدر عالٍ من الأهمية من الناحية الاجتماعية والأخلاقية.



أن يكون هناك أوضح من هذا في واقعية تقييم الآخرين؟

٩- الخواجه نصير الدين الطوسي ونجاة العلماء

نفذ المغول من المشرق إلى داخل البلاد الإسلامية، وشرعوا بحملتهم عام ٦٠٦هـ، واحتلوا بغداد عام ٦٥٦هـ، ومنذ بداية الحرب خربوا المدن والقرى التي مرّوا بها وارتكبوا فيها المجازر الجماعية، وعلى امتداد مسيرهم أبادوا مظاهر الحضارة الإسلامية، ولذا اختفى الكثير من العلماء والمفكرين ولجأوا إلى أماكن ونقاط بعيدة قاصية، وعندما وصل المغول إلى بغداد لم يرحموا الصغير ولا الكبير ولا السني ولا الشيعي، ولم تمض أيام إلا وغرقت المنطقة في مسلسل إعدامات واسع النطاق، ورموا بكتب علماء الإسلام في نهر دجلة حتى غدا ماؤه أسود.

هذا من جانب و من جانب آخر، يصنّف الفيروزآبادي، صاحب كتاب (القاموس المحيط) من الأدباء اللامعين في القرن الثامن الهجري، ويصنّف كتابه هذا مرجعاً لكتاب القواميس اللغوية الذين جاؤوا بعده.

أجاز الفيروزآبادي لأحد تلامذته - المعروف باسم ابن الحلواني - نقل كتاب (التكملة)، ويخبره بأنه أخذ هذا الكتاب عن أستاذه ورواه عنه، ذاكراً سنده لمؤلف التكملة.

وفي هذه الحال، يصف الفيروزآبادي فخر المحققين بالقول: «بحر العلوم وطود العلى، فخر الدين محمد بن الشيخ الإمام الأعظم برهان علماء الأمم، جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهر بحق روايته عن والده».

هل هناك تبادلاً علمياً وتعاوناً معرفياً أكثر من هذا؟ وهل يمكن

الدين الكازروني، وأبا الحسن علي بن عمر الكاتي القزويني - مؤلف كتاب الشمسية - من خريجي مدرسة الطوسي.

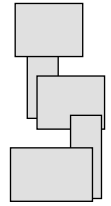
وقد حظي كتابه «تجريد الاعتقاد» باهتمام مختصّي علم الكلام الإسلامي، وبعد العلامة الحلي الذي يعدّ أول شارح لهذا الكتاب، قام عدد من العلماء السُنّة بشرحه أيضاً، مثل شمس الدين البيهقي، وشمس الدين الإصفهاني، وعلاء الدين القوشجي.

ويكتب ثالث هؤلاء الشراح في مقدّمة شرحه يحدّثنا عن هذا الكتاب بشكل مثير للدهشة، مما يجدر بطلاب المعرفة والراغبين مراجعته، وهذه بعض كلماته.

يقول: «تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كان صغير الحجم وجيز النظم، لكنه كثير العلم، عظيم الاسم،

وفي هذه الفترة كان نصير الدين الطوسي أسيراً في يد الإسماعيليين عند فتح قلعة ألموت، وسقط أسيراً في يد المغول، وحيث بلغهم علمه بالنجوم والرياضيات، وكانت هذه العلوم مرغوبة لدى هولاء، حفظوه تحت أيديهم في بغداد، وقدموا له الاحترام، وقد تمكّن بخبرته ودرايته من دعوة الكثير من العلماء من أماكن اختبائهم، وأعاد بناء الحضارة الإسلامية بتأسيسه مرصداً في مراغة.

لم يكن نصير الدين يعرف في العلاقات العلمية والفكرية سنياً ولا شيعياً، لأنه كان لا يميّز بينهما، فقد أخذ العلم من أستاذ سني المذهب اسمه: كمال الدين بن موسى، كما تعلّم العديد من علماء أهل السنّة على يديه فبلغوا مكانة مرموقة في سماء المعرفة، ويكفي أن نعرف أن قطب الدين الشيرازي، وشهاب



أصول الفقه. وقد شرح الكتابين الأولين رضي الدين الاسترآبادي، وكان شرحه لاعمين في سماء اللغة والأدب، يقول جلال الدين السيوطي: بعد الرضي كل من جاء كان يعتاش على فتاته. أما الكتاب الثالث لابن الحاجب فقد ظل كتاباً دراسياً في الحوزات الشيعية، وقد درّسه المغفور له المحقق الأردبيلي لتلميذه: صاحب المدارك، وصاحب المعالم، ووقع الكتاب موقع القبول والترغيب من جانب علماء أصول أهل السنّة، وتعدّت شروحاته الأربعين شرحاً. ومن الوسط الشيعي كانت للعلامة الحلبي مساهمة علمية كريمة، فقد كتب شرحاً علمياً تحقيقياً عليه، يقول فيه ابن حجر: «في غاية الحسن في حلّ ألفاظه، وتقريب معانيه...» (٣).

إلى هنا، نكون قد مررنا سريعاً على بعض جوانب التعاون العلمي

جليل البيان، رفيع المكان، حسن النظام، مقبول الأئمة العظام، لم يظفر بمثله علماء الأعصار، ولم يأت بمثله الفضلاء في القرون والأدوار، مشتمل على إشارات إلى مطالب هي الأمهات، مشحون بتنبهات على مباحث هي المهمات، مملوّ بالجواهر كلّها كالفصوص، ومحتوٍ على كلمات يجري أكثرها مجرى النصوص، متضمّن لبيانات معجزة في عبارات موجزة...» (٣٠).

١٠- العلامة الحلبي ومختصر ابن الحاجب

يصنّف ابن الحاجب (٦٤٦هـ) من أدباء القرن السابع ومن أصوليي عصره، وقد غدت ثلاثة من كتبه محاور للتدريس والشرح، وهي:

- ١- الشافية، في الصرف.
- ٢- الكافية، في النحو.
- ٣- مختصر الأصول، في علم

بين الفريقين، حتى القرن السابع، وقد كان هذا التعاون على مستوى العلماء والمفكرين، رغم أنه على مستويات أخرى ثمة من أوقد نار الفتنة فأوجد المشكلات للعلماء أنفسهم.

ونكون بما عرضناه قد عرضنا جانباً من مشهد التعاون بين علماء السنة والشيعية، إلا أن شرح حال هذه العلاقة المتبادلة في القرون اللاحقة يطيل بنا المقام ويزيد في الكلام، لهذا نصرف - فعلاً - النظر عنه؛ لنظّل على هذا التعاون المعرفي بين الفريقين القرن الرابع عشر الهجري، وبشكل موجز.

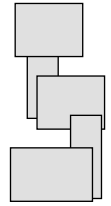
شرف الدين العاملي والشيخ سليم البشري

من مظاهر التعاون على مستويات عالية بين الفريقين... اللقاءات والحوارات العلمية بين

زعيمين: شيعي وسنيّ، فالمرحوم عبدالحسين شرف الدين العاملي (١٢٩٠-١٣٧٧هـ)، سافر إلى مصر أواخر عام ١٣٢٩هـ، وكانت رئاسة الأزهر في ذلك الزمان بيد الشيخ سليم البشري، وبعد تعارف وتذاكر خاص، قرّرا القيام بسلسلة من الحوارات المنتجة والأساسية، وذلك كي تتحدّد للزعيم السنيّ مكانة الشيعة من وجهة نظر الكتاب والسنة، وقد جمعت حصيلة الحوارات التي وقعت بين الزعيمين الدينين في ١١٠ مراجعة، ليقرّ الشيخ البشري الجليل باتباع الإمامية لمذهب أهل البيت عليه السلام، وهذه المكاتبات برمتها تشكل مادة كتاب (المراجعات).

دار التقريب ودورها في تقارب المذاهب

وفي القرن الرابع عشر، برزت بشكل واضح مظاهر هذا التعاون،



وفكر الفريقان: السني والشيوعي
 منذ عام ١٣٢٥هـ/١٩٤٦م بمسألة
 التقريب، وهذا ما أبرز مقولة
 الانسجام الإسلامي، وكان أعمدة
 هذا المشروع كل من المرحوم آية الله
 الشيخ محمدحسين كاشف الغطاء في
 العراق (١٢٩٤-١٣٧٣هـ)، والمرحوم
 آية الله البروجردي (١٢٩٢-١٣٨٠هـ) في
 إيران، من الطرف الشيوعي، وأما من
 الطرف السني فكان الشيخ عبدالمجيد
 سليم، شيخ الأزهر، والشيخ محمود
 شلتوت، لقد رفع هؤلاء الأساطين
 في المعرفة شعار التقريب، وكانوا من
 رجال الإصلاح، ودعوا عبر تأسيس
 «دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية»
 العلماء والكتّاب إلى التمسك
 بالمشتركات، وقد كرر هؤلاء الرواد
 أنه ليس هدفهم توحيد المذاهب أو
 دمجها، وإنما التقريب بينها في الرؤى
 ووجهات النظر، وقد أدى رجال العلم
 هؤلاء رسالتهم بإخلاص تام وخطوا

الائتلاف الوطني والانسجام الإسلامي
 رجب - ذوالحجّة ١٤٢٨ هـ - ميقات الحج ٢٨

مبدأ
 التمسك
 بالمشتركات



خطوات كبيرة في مجال التقريب، إلى أن طبع ونشر في القاهرة كتاب «مجمع البيان» بتصحيح قليل النظر، وكذلك كتاب «المختصر النافع» للمحقق الحلي، حتى أن الكتاب الثاني قد نفذ من الأسواق خلال شهرين.

لقد خطت دارالتقريب في القاهرة خطوات كبيرة على طريق تقريب المذاهب من بعضها، كانت من إفرازاتها الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر فيما يخص الفقه الجعفري، وأن هذا الفقه معتبرٌ ورسميٌ وشرعيٌ كسائر المذاهب الفقهية.

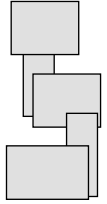
وهذا هو نصّ الفتوى الشهيرة: «قيل لفضيلته: إن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم - لكي تقع عباداته ومعاملاته على وجه صحيح - أن يقلّد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة الإمامية ولا الشيعة الزيدية،

فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مثلاً؟ فأجاب فضيلته:

١- إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه أتباع مذهب معين، بل يقول: إن لكل مسلم الحق في أن يقلّد بادي ذي بدء أيّ مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدوّنة أحكامها في كتبها الخاصة، ولن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره - أيّ مذهب كان - ولا حرج عليه في شيء من ذلك.

٢- إن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة.

فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معيّنة، فما كان دين الله وما كانت شريعته بتابعة



لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، ويجوز لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقرّرونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات» (٣٢).

وقام المغفور له آية الله البروجردي، بطبع كتاب (الخلاف) للشيخ الطوسي، وأثبت عبر ذلك أنّ ٩٩% من المسائل الفقهية يوافق فيها الرأي الشيعي رأي أحد المذاهب الفقهية السنيّة، وليست سوى مسائل معدودة تلك التي تفرّد الشيعة بها، تماماً كما هو الحال في كل مذهب حيث له متفرّداته.

وما زلت أذكر عندما وردت إلى مدينة قم هيئة من علماء مصر، أذعنوا بأن ما نقله الشيخ الطوسي في هذا الكتاب عن علماء المذاهب كان صحيحاً تماماً. ومن النتائج ذات البركة التي

أفرزتها دارالتقريب أن الفقه الشيعي أثر في وضع بعض القوانين في مصر ممّا يرجع إلى الأحوال الشخصية، كما أثر في الآراء الفقهية لبعض المفتين، كما هو الحال في المسائل التالية:

١- إن الطلاق المتعدد في مجلس واحد ولو بلغ الثلاث يكون في حكم طلاق واحد.

٢- عدم صحّة الطلاق الذي يقع في طهر قارب الزوج زوجته فيه، كما أن الطلاق في حال الحيض غير صحيح.

٣- لزوم وجود شاهدين عند إجراء صيغة الطلاق.

نعم، من الممكن أن تكون السياسات اللاحقة قد تلاعبت في هذه القوانين فأخرجتها عن حالتها السابقة.

وفي الوقت الذي كان فيه المرحوم آية الله البروجردي يمسك بزمامة الشيعة كان الشيخ عبدالمجيد سليم رئيساً للأزهر، وعندما اطلع الأخير

على مرض البروجردى أرسل
إليه رسالة مليئة بالأدب مهوراً
بالإخلاص والصدق، وهذا نصّ ما
جاء في هذه الرسالة:

حضرة صاحب السملحة آفة الله
الحاج آقا حسين بروجردى:

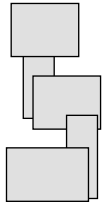
سلام الله عليكم ورحمته

أمّا بعد: فقد بلغنا - عن طريق
المذيع - أن صحتكم الغالية قد ألمّ
بها طارئ من المرض، فأسفنا لذلك
أشد الأسف لما نعرفه فيكم من
العلم والفضل والإخلاص للحق،
وإنا لنسأل الله جلت قدرته أن يعجل
بشفائكم، ويلبسكم لباس العافية،
حتى تتمكنوا من العود الحميد إلى
نشاطكم المعهود في خدمة الإسلام
والمسلمين.

ولقد شاءت إرادة الله أن أكون أنا
أيضاً في هذه الفترة مريضاً معتكفاً
في بيتي أحمل همّين ممّضين: همّ نفسي
وهمّ قومي، وأطيل التفكير خالياً

في حال أمتنا العزيزة، فيأخذني من
القلق والحزن ما الله به عليم، فأرجو
أن تسألوا الله لي العافية كما أسأله
لكم، والله يتولانا جميعاً برحمته.

إن الأمة الإسلامية الآن أحوج
ما تكون إلى رجال صادقي العزم،
راجحي الوزن، يجاهدون في الله حق
جهاده، ليدرءوا عنها غوائل الفتن،
ونوازل المحن، فقد تألبت قوى
الشر، وتجمعت عناصر الفساد،
وزلزل المؤمنون في كل قطر من
أقطارهم زلزالاً شديداً، وكأن قد أتى
الزمان الذي أنبأ الصادق الأمين: -
صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله
وصحبه - أن القابض فيه على دينه
كالقابض على الجمر، وإنما مثل أهل
العلم من المؤمنين الصادقين كأطواد
راسية أو حصون منيعة ألقاها الله
في الناس أن تيمد بهم الأرض من
فتنة أو جهالة، أو كنجوم ثاقبة في
ليل داج، ترشد السارين، وتهدي



الحائرين. فادع الله معي أن يحفظ هؤلاء ويكثر في الأمة منهم، وينشر عليهم رحمته، وينزل عليهم سكينته، ويؤيد بهم الحق والدين، ويهزم بهم المبطلين والملحددين والمفسدين، إنَّه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

١٤ من شعبان سنة ١٣٧٠هـ

وقد تأثر صاحب السماحة العلامة الأكبر بهذا الكتاب الذي يدل على ما تنطوي عليه نفس فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وكبير علماء السنة من عواطف كريمة نحو إخوانه المؤمنين، وحرص على نهوض الأمة الإسلامية نهضة تعيد إليها سابق مجدها وعزها، فأجاب بهذا الكتاب:

حضرة صاحب الفضيلة الأكبر الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر - دامت إفاضاته .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما بعد - قد بلغنا كتابكم الكريم الحاوي للعواطف الإسلامية السامية، يحكي لنا أنه لما بلغكم عن طريق المذيع أن صحة هذا العبد قد ألمَّ بها طارئ من المرض، أسفتم لذلك، ودعوتم الله تعالى أن يعيد له الصحة.

فأشكركم على ذلك، وأسأل الله تعالى أن يبذل التعارف والتعاطف بين المسلمين، مما كان بينهم من التناكر والتدابير والتقاطع، إنَّه على ما يشاء قدير.

ويحكي كتابكم أيضاً، أنه قد ألمَّ بصحتكم الغالية طارئ من المرض، كما ألمَّ بي، فاعتكفتم في البيت حاملين لهمين ممضين: همَّ نفسكم، وهمَّ قومكم، وأن إطالة التفكير في حالة الأمة، توجب لكم من القلق والحزن، ما الله به عليم.

هكذا ينبغي أن يكون رجال العلم ورجال الإسلام، مهما حاقت

بالمسلمين زلازل الفتن، وأحاطت بهم نوازل الحزن، فأسأل الله عز سلطانه، أن يلبسكم لباس العافية، ويوفقكم لخدمة الإسلام والمسلمين، ولما يوجبه الاهتمام بأمر الأمة في مثل هذا الزمان، من أمثال جنابكم الذي وقفوا أنفسهم لخدمة هذه الأمة، ودرء عوادي المفسدين والملحدين عنها. إنّه قريب مجيب.

إنّ هنا أموراً كنت أحب إبداءها لكم، لكن حالي لا تساعدني على ذلك. والسلام عليكم وعلى من أحاط بكم من المؤمنين الصادقين ورحمة الله وبركاته.

١٧ من رمضان سنة ١٣٧٠ هـ

رسالة العلامة الألوسي إلى الشيخ الزنجاني

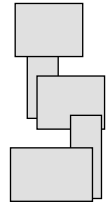
إنّ السيد محمود الألوسي هو أحد أعلام عصره في بغداد وهو حفيد مؤلّف «روح المعاني» في تفسير

القرآن الكريم، وقد كتب رسالة إلى العلامة الشيخ أبي عبدالله الزنجاني مؤلّف «تاريخ القرآن الكريم» المطبوع بمصر، والذي قدّم له الدكتور أحمد أمين. وهذه الرسالة تعرب عن مدى العلاقة الأخوية بين العلمين في عصرهما، وإليك نصّ الرسالة.

إلى فخر العلماء وعمدة الفضلاء
حضرة الشيخ أبي عبدالله الزنجاني
أمده الله بفيض لطفه الربّاني
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد فقد شرفنا كتابكم، وسرّنا خطابكم، وحمدنا الله على بشرى سلامتكم وكمال صحتكم، لازلتم كذلك على الدوام موفوري الآلاء والانعام، وقد ابهجني ما أخبرتم عنه من فحصكم عن كتاب النبات، ووعدكم بتبشيرنا بالعشور عليه، حقق الله تعالى ذلك بمساعيكم المشكورة وهممكم المذكورة.

وقد سرني أيضاً ما تفضلتم به





فجزاكم الله عن ذلك خير الجزاء
وأمدّكم بالتوفيقات الإلهية عسى
أن يكون في مجاهدتكم هذه جبران
لما تركه كتاب «فصل الخطاب» فإنه
أضحى مدار مطاعن أعداء الإسلام
من البروتستان وغيرهم، فإنّ جمعيتهم
التي في مصر نشرت كتاباً في المطاعن
مستندة إليه، وسمعت أنّ بعض أفاضل
النجف ردّ عليه أيضاً.

وكتاب الجمعية المصرية قد ردّ
عليه بعض أفاضل مصر بكتاب
سمّاه «تنزيه القرآن الرشيف عن
التغيير والتحريف» وقد عثرت على
نسخة منه، وها هي مقدّمة إليكم

من أسماء نوادير الكتب والمصنفات
السلفية التي هي من تحف الزمان
ونوادره وفي الحقيقة أنّه لا غنى
لطلاب العلم عن جميعها غير أنّها
مما لا يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم ونحن
نكتفي منها إذا أمكن باستكتاب
مقاييس اللغة فقط بواسطة كاتب
مجيد على شرط أن نقدم ما يصرف
عليه من الأجرة وإن كان في ذلك
كلفة على ذلك الجناب وإتعب
لفكركم.

وأما ما أخبرتم به أنّكم بذلتهم
السعي لإلقاء محاضرات في شؤون
القرآن العظيم وإنكار التحريف،

الاجتهاد الوطني والانسجام الإسلامي
رجب - ذوالحجّة ١٤٢٨ هـ - ميقات الحج ٢٨

مقالات
الشيخ

أمودجاً واضحاً لما أشرنا إليه، ويستطيع الباحث أن يعثر على الكثير من النماذج الأخرى. إلا أن الشيء الذي نثنّ منه اليوم هو ذاك النوع من الإفراط المسمى بالسلفية، والذي تجلّى في «الوهابية»، وهو اتجاه خدش صورة السلف من جهة وعذب الخلف من الناحية الأخرى.

السلفية الوهابية

رسم أحمد بن تيمية في القرن الثامن الإسلامي مدرسةً في أرض العلم والمعرفة، أرض الشام، كانت نتيجتها تقليص مقامات الأنبياء والأولياء، وإفناء الآثار الباقية عن المسلمين السابقين، وقد دفنت هذه المدرسة بموت مؤسسها عام (١٧٢٨هـ) في مسقط رأسه، حيث شنّ علماء الشام ومصر الكبار من الذين كانوا يتمتعون بمكانة رفيعة في الحديث والكلام والتفسير... شنّوا عليه

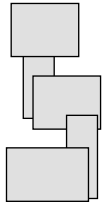
صحبة الكتاب مع الفائدة السادسة من الفوائد التي في مقدمة تفسير روح المعاني، ورأيت المجلد الثاني من كتاب تاريخ أدب العرب لأبي السامي مصطفى صادق الرافعي، مشتملاً على شؤون القرآن من أوّله إلى آخره، والكتاب مطبوع في مصر يمكنكم أن تستجلبوا منه نسخة فإنّ نسخه التي وردت إلى بغداد نفدت، ولو كنت عثرت على نسخة منه لاشتريتها وقدمتها إليكم وهو ممّا يلزم احضاره بين يديكم.

وأختم الكلام بتقديم وافر الاحترام، وعليكم منا التحية والسلام.

٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٤١

محمود شكري الألوسي

وبهذا نكون قد أطللنا إطلاقة سريعة وواضحة على تعاون زعماء الطائفتين، وهو ما يمكنه أن يشكّل



وهي حكومة استمرت قرابة الألف عام، ليتسلط أنصاره على الحرمين الشريفين، وفي هذه الفترة شهدت سياسته صعوداً وهبوطاً، فكانوا يظهرن الرفق والعاطفة حيناً وأخرى يردون الميدان بالخشونة والعنف.

وفي الستين الأخيرتين، بلغت خشونة الوهابية حدّها الأعلى، فأهانت الزوار، فحوّلت المقبرة التي يفترض بها أن تكون محيطاً هادئاً لقراءة الفاتحة والقرآن وزيارة أولياء الله الإلهيين وأنصار رسول الله ﷺ وأصحابه، إلى مركز للدعوة إلى الوهابية، دعوة من طرف واحد بحيث لو أجاب أحد أو ناقش يجازى ويعتقل ويضرب ويشتم، أفهل يتبع هؤلاء السلف وسيرتهم؟! حاشا أن يكون السلف كذلك؟ فأحمد بن حنبل (١٨٦-٢٤١هـ) غسل قميص الشافعي (٢٠٤هـ) عندما مات وأخذ

هجوماً نقدياً جاداً، ووقف الجميع على اشتباهاته وأخطائه.

لكن، ومرةً أخرى، جدّت هذه المدرسة بعد عدة قرون، عام ١١٦٠هـ على يد محمد بن عبدالوهاب، وتمكنت من بسط نفوذها على قطرٍ معين من أقطار المسلمين، والسرّ في هذا الأمر حرمان مسقط رأسه عن حواضر العلم والمعرفة، فقد كان سكان منطقته من أبناء الصحراء وأهل البادية، لذا وقعوا في خداع كلماته التي كانت تبدو في ظاهرها جميلة رشيقة، فأعلنوه حاملاً للواء التوحيد.

في هذه الأثناء، كتبت ضده ردود مفصّلة في بلاد نجد والحجاز وسوريا والعراق، وقلّصت من نفوذه وتناميه، لكن مدرسته استطاعت بعد الحرب العالمية الأولى - بالتعاون والاتفاق مع الامبريالية العالمية - أن تطيح بحكومة الأشراف في مكة والمدينة،

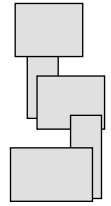
يتبرّك بمائه، أفهل يتبرّك إمامهم
بقميص الشافعي وهم لا يتبركون
بضريح النبي ﷺ بل يرون ذلك
ممنوعاً ومحظوراً؟!

إن زوّار بيت الله يدخلون السعودية
بتأشيرة دخول رسمية ويفترض
أن يكونوا محل احترام الدولة
الحاكمة، إلا أن أغلب هؤلاء الزوار
يخشون على أنفسهم وأموالهم،
ويقومون بالواجبات والمستحبات
بقلق واضطراب وخوف، بل
يتعرّض أكثرهم لإهانة رجال
الشرطة الدينية.

إن الحرمين الشريفين حرم آمن لله
تعالى، فكل الطوائف الإسلامية
من حقها أن تقوم بأعمالها في حرية
تامة في الوقت عينه الذي تكون
فيه الأمور التنظيمية والإدارية بيد
الدولة. فالنظم والانضباط مسألة،
وإرغام الجميع على اتباع مذهب
واحد ظهر في القرن الثامن الهجري،

واتهام الناس - عبر ذلك - بالكفر
والشرك.. ذلك كله أمر آخر.
إن أعمال العنف التي يقوم بها
هذا الفريق سببت عرض الإسلام
في الغرب بشكل دين العنف، وأعاق
مجال التبليغ لدى الطبقة الشابة عند
هؤلاء أنفسهم.

من الجيد أن تستفيد هذه الشريحة
من الملك السعودي الثاني (سعود
بن عبدالعزيز)، ذلك أنه استضيف
في إيران عام ١٣٣٤، وقد أهدى -
احتراماً - عدة نسخ من القرآن
الكريم وبعض القطع من ستائر
الكعبة، وعدد آخر من الهدايا عبر
السيد يوسف أبو علي للسيد
آية الله البروجردي. وقد قبل السيد
البروجردي القرآن وقطعة ستار
الكعبة وأهدى بقية الهدايا إلى حاملها
له، وقد كتب رسالة أشار فيها: اليوم
والحج في يد جناب الملك أرسل
إليكم حديثاً حول حج رسول الله،



ونقله البخاري في صحيحه وأبو داوود في سننه، فاسعوا أن يطابق الحج مفاد هذه الرواية (٣٣).

من المؤسف جداً أن تباد بالجرافات تمام الآثار الإسلامية التي هي علائم على أصالتنا وجذورنا، عبر حديث واحد لا يدل أبداً على مقصودهم، واليوم غدت مكة والمدينة مدينتان غربيّتان لا مظاهر تعرّف بهما مدينتان شرقيّتان، أما ذاك الحديث وكيف دلّ على مقصودهم فنوضح أمره باختصار، حيث روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي عن عليّ عليه السلام أنه قال له: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وآله: أن لا تدع تمثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» (٣٤).

لا نتحدّث فعلاً عن سند هذا الحديث، حيث لا يخلو بعض رواته من الإشكال والחדشة؛ إنما المهم هو إيضاح مدلوله، ولا بد من التذكير

أن فعل «سوى» فعل متعّد، ويتطلّب مفعولاً واحداً فقط، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٣٥). إلا أنها قد تأخذ أحياناً مفعولين اثنين، فتحتاج في هذه الحال إلى حرف جر، تماماً كما يقول تعالى: ﴿إِذْ نَسَّوْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٦)، وكلّما أخذت مفعولاً واحداً تكون التسوية صفة لذلك الشيء، تماماً كما جاء في الآية بمعنى: عندما أكمل خلق الإنسان، لكن عندما تأخذ مفعولين وينال المفعول الثاني حرف الجر، فلا تكون التسوية صفةً للشيء نفسه، بل صفةً قياساً وإضافةً إلى شيء آخر، تماماً كما جاء في الآية الثانية: إننا نعدّكم - أيّتها الأصنام - شيئاً واحداً مع الله.

وانطلاقاً من هذا المبدأ لا بد أن نرى أن فعل «سويت» في الحديث له مفعول واحد أم مفعولان؟ الوارد في تعبير الإمام عليّ عليه السلام - على تقدير

صحة الحديث - : «ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»، وفي هذه الحال تكون التسوية صفة للقبر نفسه، لا صفةً له بالنسبة إلى شيء آخر، وإذا كانت صفةً للقبر نفسه فالمقصود منها جعل القبر مسطحاً غير مسنم، وإلا فإذا كان المراد تخريب القبور كان لا بد من مفعول ثانٍ بحرف الجر، إذ يقول: «إلا سويته بالأرض».

والنتيجة أنه لا بد في متن الحديث من إعمال الدقة لمعرفة هل هذه التسوية صفة للقبر نفسه أو صفة له بالنسبة إلى شيء آخر؟ ونص الحديث يعطي شهادة على كون التسوية صفةً للقبر نفسه، بمعنى إخراج القبر من حالة الإعوجاج وعدم الانتظام أو التسنيم أو الانحناء، لا أن المراد تخريب القبر وتسويته بالأرض.

كيف يمكن أن يكون المعنى الثاني صحيحاً والحال أن تمام فقهاء الإسلام يفتون باستحباب أن يرتفع القبر عن

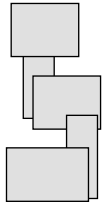
الأرض بمقدار أربعة أصابع؟! ومن حسن الحظ أن شرّاح صحيح مسلم فسروا الحديث المذكور بالمعنى الذي ذكرناه (٣٧).

إننا نصرف النظر عن تمام هذه الأمور ونفترض تمامية دلالة الحديث إلا أنه يقول: سوّوا القبور بالأرض، لكنه لا يتحدّث عن حرمة البناء على القبر ورفع القباب عليه وتدمير الصروح المشادة عليه، فيبورك هذا الاجتهاد الذي لا يقوم لا على كتاب ولا على حديث ولا على اتفاق العلماء!!

وأوضح شاهد على جواز البناء على القبور هو قبر الرسول الأكرم ﷺ، فمنذ اليوم الأول دفن ﷺ في بيته، وللبيت بناء، وقد حفظ هذا البناء عبر القرون كلّها إلى يومنا هذا.

حفظ الأصالة

إن حفظ التراث والأصالة من



فإن وجود الآثار والمآثر الإسلامية التي منها مرقد النبي ﷺ حاكية عن واقعية وجوده وأصالة مدرسته، كما أن تدمير الآثار يعرّض أصالة الإسلام واعتباره وقادته وأئمة لخطر الضياع أيضاً.

من هنا، ولكي يحول المسلمون دون هذا الخطر الكبير، لابد لهم من حفظ كل الآثار المتصلة بالرسالة، والتذكير بها دوماً، كما يجب عليهم زيارة مرقد هؤلاء المعصومين حفاظاً عليها من الفناء التدريجي، وفي هذه الحال لا يمكن التغاضي عن هذه المزية الكبيرة، وإقفال باب اللقاء الروحي والمعنوي مع هؤلاء العظماء أمام المسلمين.

نعم، الحديث عن موضوع هدم الآثار كبير وطويل، لكننا نكتفي بهذا المختصر ونحيل التفصيل إلى فرصةٍ أخرى.

الوظائف الإسلامية الملقاة على عاتقنا، والمقصود منها الأشياء التي تحكي عن واقع الإسلام واستمراره عبر العصور. فالدين الإسلامي دينٌ عالمي، وسيظل إلى يوم القيامة أكمل الأديان السماوية، حيث من الممكن أن تفصلنا عن القيامة آلاف السنين، فنحن ملزمون بحفظ ما يدلّ على أصالة الإسلام من غدر الزمان وتخريبه، لنحفظه سالماً إلى الأجيال اللاحقة.

إن وجود المسيح وديانته أمرٌ قطعي اليوم عند المسلمين وفي نظرهم، إلا أن ذلك بدأت تغلب عليه الحالة الأسطورية في رؤية الشباب الغربي، إذ لا يوجد أثر ملموس للمسيح عليه السلام بين أيديهم، فكتابه طالته التحريفات، ولم يبق لديهم شيء عنه ولا من أثر لأمه ولا لحوارثه، لهذا يقلص مرور الزمان من قطعة هذا الدين ويذره في هالة من الإبهام والترديد. وهكذا

الهوامش

- ٢٠) تاريخ ابن عساكر ٥٦: ٢٩٨.
- ٢١) انظر: علل الشرائع.
- ٢٢) الصدوق، كمال الدين: ١٧٠.
- ٢٣) المنتظم ١٥: ١٥٧.
- ٢٤) رجال النجاشي، الرقم: ١٠٦٧.
- ٢٥) الفهرست للشيخ الطوسي، الرقم: ٧١.
- ٢٦) وفيات الأعيان ٣: ٣١٣، الرقم: ٤٤٣، نقلاً عن ابن بسام.
- ٢٧) مقدّمة التبيان: ٧.
- ٢٨) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٨: ٣٣٤.
- ٢٩) التذوین في أخبار قزوین ٣: ٣٧٢.
- ٣٠) علاء الدين القوشجي، شرح التجريد: ١.
- ٣١) الدرر الكامنة ٢: ٧١.
- ٣٢) مجلّة رسالة الإسلام، السنة الحادية عشرة، العدد الثالث.
- ٣٣) رسالة الإسلام، السنة الثامنة، العدد الأول.
- ٣٤) صحيح مسلم ٣: ٦١، كتاب الجنائز؛ وسنن الترمذي ٢: ٢٥٦، باب ما جاء في تسوية القبور؛ وسنن النسائي ٤: ٨٨، باب تسوية القبر.
- ٣٥) الحجر: ٢٩.
- ٣٦) الشعراء: ٩٨.
- ٣٧) شرح النووي على صحيح مسلم ٧: ٣٦، الطبعة الثالثة، طبعة دار إحياء التراث العربي.
- ١) الحجرات: ١٣.
- ٢) البقرة: ١١١.
- ٣) البقرة: ١١٣.
- ٤) البقرة: ٩٤.
- ٥) القصص: ٨٥.
- ٦) آل عمران: ١٠٣.
- ٧) الحجرات: ١٠.
- ٨) الأنعام: ٦٥.
- ٩٩) إشارة إلى دعايات الوهابيين التي تطرح من قبل البعض في مقبرة البقيع، على أسمع حجج بيت الله الحرام و زائري قبر رسول الله ﷺ و أهل بيته عليهم السلام.
- ١٠) الرعد: ٣٩.
- ١١) المائدة: ٦٤.
- ١٢) يونس: ٩٨.
- ١٣) الأنفال: ٣٠.
- ١٤) صحيح البخاري ٤: ٢٠٨، كتاب الأنبياء، الباب ٥١.
- ١٥) التحفة الاثنا عشرية: ٨.
- ١٦) ابن شمسية، التوسل والوسيلة: ٥٢.
- ١٧) لمزيد من الاطلاع انظر كتاب: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١: ٧١-٧٣.
- ١٨) وسائل الشيعة، ج ١٢، أبواب أحكام العيوب، الباب ١، الحديث ١.
- ١٩) التفسير الكبير، للفخر الرازي، ١: ٢٠٤.

